

مفاهيم القرآن

(31) فما أروع هذا التشبيه حيث إنَّ الراكب المنبتَّ - و إن كان يعدو بفرسه أميلاً - عديدة بغية الوصول إلى غايته، ولكنه بفعله هذا يُنتج عكس المطلوب حيث إنَّ المركوب يُعْصِيه التعبُّ ولا يكون بمقدوره الاستمرار في العدو، ويبقى هو في وسط الطريق لا يهتدي إلى بغيته، فهو لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى. فهكذا الدعوة إلى الشريعة إذا كانت مقرونة بالشدة والضعف تنتج عكس المطلوب حيث لا تجد لها أُذناً صاغية، بل يخرج الناس منها أفواجا. ولاجل ذلك صدع النبي - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - بسهولة شريعته، وقال: "بعثت بالشريعة السهلة السمحة". (1) 10. دلَّت الآيات القرآنية على أنَّ التكليف على القدر المستطاع وقد أطبق عليه العقل والنقل، إذ كيف يمكن تكليف الناس بأعمال، كإدخال الشيء الكبير في الطرف الصغير، من دون تغيير في الطرف والمظروف؟ أو التحليق في الهواء دون وسيلة، إلى غير ذلك من الأمور الممتنعة التي تدخل في نطاق التكليف بما لا يُطاق، حتى أنَّ محقِّقي العدالة ذهبوا إلى أنَّ هذا النوع من التكليف المحال، بمعنى أنَّه لا ينقذ في ذهن الأمر، الطلب و الإرادة الجدية المتعلقة ببعث العاجز إلى المطلوب، ولو تظاهر به فإنَّما تظاهر بظاهر التكليف لا بواقعه. فتكون النتيجة: أنَّ امتناع المكلف به يلزم امتناع نفس التكليف أيضاً، يقول سبحانه: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِشْرًا وَلَا نَفْساً) (2) وقال في آية أخرى: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِشْرًا وَلَا مَا آتَاهَا). (3) ومضمون كلتا الآيتين واحد، وهو أنَّ الله يكلف الإنسان بقدر طاقته وقابليته. هذه نماذج استعرضناها لإثبات أنَّ التشريع الإسلامي يتمتَّع بمرونة، و أنَّه مبنيٌّ على أساس العدل. وفي الحقيقة أنَّ التشريع الإسلامي من مظاهر عدله في هذا المجال. (1) سفينة البحار: 1|695. (2) البقرة: 286. (3) الطلاق: 7.